

تاريخ المذاهب الدينية في اليمن (*)

(أيمن فؤاد سيد)

مراجعة أحمد زهوة

بدأ المؤلف الكتاب بمقدمة ذكر فيها بعض المصادر التي تناولت تاريخ اليمن الإسلامي في وقت مبكر، ثم عرض بإيجاز موضوع الكتاب ومحتوياته، وأتبع هذه المقدمة بدراسة نقدية لمصادر الكتاب مقسماً إياها إلى ثلاثة أنواع: مصادر السنة الشافعية، والمصادر الفاطمية، والمصادر الزيدية.

الباب الأول: مذهب السنة في بلاد اليمن في القرنين الخامس والسادس للهجرة.

في الفصل الأول، وهو بعنوان «كيفية انتشار المذهب الشافعي حتى القرن السادس الهجري»، مهّد لهذا الموضوع بذكر دخول أهل اليمن في الإسلام وانتشاره بينهم وخروج الأسود العنسي واغتياله. ثم تحدث عن مشاركة العلماء اليمنيين في تدوين الحديث وتبويبه حتى ق 3 هـ. وعدد بعض علمائهم وأرّخ لهم بصورة موجزة، وهم: همام بن منبه وأخوه وهب، وطاووس بن كيسان، ومعمّر بن راشد الأزدي، وأبو قرّة موسى بن طارق الزبيدي، وأبو بكر عبد الرزاق بن همام الصنعاني، وأبو عبد الله محمد بن يحيى العدني الدراوردي. ثم عدد بعض علماء الفقه دون ترجمة لهم في المتن بل في الحواشي.

(*) أيمن فؤاد سيد: تاريخ المذاهب الدينية في بلاد اليمن حتى نهاية القرن السادس الهجري، الدار المصرية اللبنانية، الطبعة الأولى، 1408 هـ - 1988 م.

وتحت عنوان «الحالة السياسية في بلاد اليمن في أوائل ق3هـ» ذكر ثورة إبراهيم بن موسى بن جعفر وارسال الخليفة المأمون العباسي محمد بن علي بن ماهان للقضاء عليها. ثم ارسال محمد بن إبراهيم بن زياد في سنة 203هـ الذي استطاع القضاء على ثورة الأشاعر وعك، وأسس أول دولة مستقلة في اليمن - تحت سيادة العباسيين - وجعل زبيد التي بناها عاصمة له. واستمرت هذه الدولة بعد مؤسسها إلى سنة 407هـ/1016م، ثم شجع العباسيون اليعافرة ليؤسسوا دولة مناوئة للزياديين في صنعاء، ولكنهم لم يستطيعوا القضاء على دولة بني زياد وظلوا يحملون إليهم الخراج. وتتابع الدويلات القبلية والطائفية في اليمن حتى توزع إلى دويلات مستقلة صغيرة متناحرة: فكان ابن طَرْف صاحب عثَر والمخلاف السليماني في تهامة، والحرّاني صاحب حَلِي، وأجلّهم ابن زياد في زبيد، وبنو يغفر في صنعاء، والأشراف الزيديون في صعدة. وبعد أبي الجيش اسحاق بن ابراهيم الزيادي تضعضعت دولة الزياديين وتولى أمرهم عبيدهم إلى أن وصل النجاشيون وهم عبيد عبيدهم.

وبعد ذلك تحدث عن نشأة المذاهب الفقهية عموماً، قبل ق3هـ. وانتشارها في مختلف بقاع اليمن، وخاصة مذهبي أبي حنيفة ومالك. ثم جاء المذهب الشافعي الذي انتشر خاصة في اليمن الأسفل، وذكر أن سبب انتشاره هو دخول الإمام الشافعي إلى اليمن في أواخر القرن الثاني، بينما يرى أن مذهب الإمام أحمد بن حنبل لم يقدر له الانتشار نهائياً رغم دخول الإمام أحمد إلى اليمن، وإن صار كثير من شافعية اليمن فيما بعد شافعية في المذهب وحنابلة في العقيدة.

ثم بدأ بذكر أكابر رجال المذهب الشافعي الذين ساعدوا على نشره وأخذ عنهم فقه المذهب، منوهاً بأهم الكتب الشافعية التي انتشرت في اليمن حسب التسلسل الزمني. فترجم للقاسم بن محمد بن عبد الله الجمحي السهفني (ت 437هـ)، وذكر رحلاته في اليمن لطلب العلم وانتشار المذهب عنه في مخلاف الجَند وصنعاء وعدن. ثم قال: إن المذهب الشافعي عُرف في تهامة بفضل جهود الفقهاء بني أبي عقامة. وبعد ذلك عدّد أهم كتب الشافعية التي

كانت تدرّس في اليمن في ذلك الوقت مثل: سنن المزني، وسنن الربيع، ومؤلفات القاضي المراغي في علم الكلام، ومختصر المزني وشروحه، وأشهرها في اليمن شرح أبي الفتوح ابن ملامس (ت 420هـ).

وفي المائة الخامسة، كان من أشهر رجال المذهب الشافعي: جعفر ابن عبد الرحيم المحابي (ت 460هـ) الذي درس على القاسم بن محمد، وألف كتاباً في الخلاف سماه «الجامع». وكذلك الحافظ عبد الملك بن محمد اليافعي (ت 493هـ) الذي كان كثير الرحلة في طلب الحديث. ثم عدد أهم الكتب التي كان العلماء يتفقهون بها، مثل: مختصر المزني، ورسالة الشافعي، ومصنفات القاضي أبي الطيب الطبري (ت 450هـ) والأسفراييني (ت 406هـ) وغيرها... إلى أن دخل اليمن كتاب «المذهب» لأبي إسحاق الشيرازي (ت 478 هـ) والذي انتشر سريعاً بين العلماء، ولقي الإجلال الكثير حتى أصبح أهم كتب الشافعية في اليمن، وقام كثير من فقهاءهم بالشرح والتعليق عليه.

ثم ذكر أشهر علماء المذهب في النصف الثاني للمائة الخامسة وخلال المائة السادسة، وأهمهم: الفقيه زيد بن عبد الله اليفاعي (ت 514 هـ في الجند)، وتلميذه يحيى بن أبي الخير بن سالم العمراني (ت 558 هـ في ذي سُفال) والذي أصبح أحد أئمة اليمن الكبار، كان كثير الاطلاع والدرس والتحصيل وأهم مؤلفاته: الزوائد، والبيان، والسؤال عن ما في المذهب من الاشكال، (وقد توسع المؤلف في ترجمة هذا الفقيه أكثر من غيره).

ومن أشهر علماء المائة السادسة باليمن: الفقيه أبو محمد الحسن ابن أبي بكر الشيباني (ت 583هـ) صاحب كتاب «المشكل على المذهب»، ومن المحدثين: الفقيه أبو الحسن علي بن أبي بكر الفضلي. وخلف أبو الطيب طاهر بن يحيى العمراني والده في المكانة والعلم وتصدر حلقاته ومجلسه، وتولى قضاء ذي جَبَلَة وأعمالها من قبل عبد النبي بن مهدي. وكان بين الكتب المتداولة في اليمن في ذلك الوقت كتاب «المستصفى في سنن المصطفى» لمحمد بن سعيد بن معن القريظي (ت 576هـ) وكان معتمداً من قبل الفقهاء والمحدثين.

وفي الفصل الثاني: تحدث عن المذهب الأشعري، فذكر أنه دخل إلى اليمن مع الأيوبيين سنة 569هـ، فمال إليه أكثر شافعية اليمن، ومنهم من تمسك بمذهب الحنابلة في الأصول، ثم عرّف بالمذهب الأشعري، كيف بدأ وانتشر، وأرّخ للأشعري بترجمة موجزة. ثم ذكر اختلاف الشافعية فيما بينهم عند دخول المذهب الأشعري إلى اليمن، فقد بقي بعضهم يقول بمقالة ابن حنبل في العقائد، وجرت مناظرات فيما بينهم وبين المعتزلة، كمناظرة قاضي الزيدية المعتزلي جعفر بن أحمد وتلميذ العمراني علي بن عبد الله اليرمي الشافعي، ووصل الأمر إلى حد تكفير الأشاعرة للشافعية الحنبلية وبالعكس أيضاً.

ودخلت مؤلفات الغزالي الأشعري إلى اليمن، وأخذت مكانها إلى جانب كتب أبي إسحاق الشيرازي، وكتاب «البيان» للعمراني، التي كان يعتمد عليها علماء أهل السنة في فتواهم ومناظراتهم. وذكر أن كتاب الغزالي «سرّ العالمين» منحول عليه، إذ يصرح فيه بالتشيع وبميله لكلام المعتزلة في الأفعال. ثم أورد موجزاً لتطور مذهب أهل السنة في اليمن حتى نهاية القرن السادس، ملاحظاً أنه «انتشر في اليمن نقيضان من المذاهب في وقت واحد تقريباً، ففي اليمن الأسفل مال الشافعية في الأصول إلى مذهب الأشعري بينما أخذ بعضهم بمذهب الحنابلة، أما في اليمن الأعلى فقد انتشر مذهب المعتزلة ولقي قبولاً في أوساط الزيدية، فكانوا زيدية حنفية في الفروع ومعتزلة في العقيدة».

وفي الفصل الثالث: تحدث عن الحالة السياسية في اليمن في القرنين الخامس والسادس للهجرة، مبتدئاً بذكر الفرق والطوائف التي كانت تحكم اليمن في أوائل القرن الخامس. ثم تحدث عن كيفية سقوط دولة بني زياد وقيام دولة مواليتهم الأحباش بني نجاح في زبيد ونواحيها، الذين أصبحوا حماة السنة الشافعية في اليمن، وذكر صراعهم مع الصليحيين دعاة الفاطميين في اليمن، هذا الصراع الذي بقي بين كر وفر ولم يستطع أحدهما القضاء على الآخر حتى قيام دولة بني مهدي التي أزلت دولة بني نجاح سنة 554 هـ/1159م.

ثم تحدث عن كيفية قيام دولة بني مهدي مترجماً لمؤسسها علي بن مهدي الذي قال إنه كان خارجياً في الأصول حنفياً في الفروع، وبقيت هذه الدولة إلى أن قدم الأيوبيون سنة 569هـ فقصوا عليها كما قصوا على دولة بني حاتم في صنعاء والزريعيين في عدن، وكانت دولة بني حاتم في صراع مستمر مع دولة الأئمة الزيديين في صعدة. وقال: إن الفتح الأيوبي أدى إلى القضاء على جميع الدول التي كانت تحكم اليمن من صنعاء حتى عدن جنوباً.

الباب الثاني: الدعوة الفاطمية في اليمن في القرنين الخامس والسادس للهجرة
في الفصل الأول عرّف المؤلف بالفاطميين، ونسبهم، وقيام دعوتهم عموماً، وكيفية تنظيم حركتهم، وانتشار دعائهم حتى توجه إمامهم إلى مصر ومنها إلى المغرب، وانشقاق بعض الدعاة على الإمام لتوجهه إلى المغرب وليس إلى اليمن، وتأليفهم للحركة القرمطية في الشام والبحرين واليمن، ولكن ابن حوشب داعية اليمن استطاع القضاء على حركة فيروز كبير دعاة الفاطمية الذي اتجه إلى اليمن منشقاً ومرتبطاً بالحركة القرمطية.

وبعد وفاة منصور اليمن ابن حوشب سنة 303هـ نشب صراع على خلافته بين ولده أبي الحسن المنصور والشاوري الذي استخلفه ابن حوشب. واستطاع أبو الحسن أن يغتال الشاوري ويتولى الأمر من بعده، ثم انشق عن الدعوة الاسماعيلية ورجع إلى مذهب السنة، ولكنه قُتل أيضاً على يد أحد السنيين الذي شك بإخلاصه. وبعده بدأ أمر الدعوة في اليمن بالاضطراب، وأخذ الدعاة ينشقون عن الدعوة ويضربون بعضهم بعضاً حتى تبعثر الإسماعيليون وأخذوا بالتستر مما أدى إلى غموض تاريخهم في تلك الفترة (وهي نحو 120 سنة)، إلى أن انتهى أمر الدعوة في عهدي الظاهر والمستنصر إلى رجل من شبام يقال له عامر بن عبد الله الزواحي الذي كان كثير المال فاستطاع هذا أن يستميل علي بن محمد الصليحي - وهو ابن قاض سني المذهب له طاعة في رجال حراز -. ثم توفي الزواحي بعد أن أوصى بكتبه وعلومه إلى علي الذي قام بأمر الدعوة بعد أن بلغ أشده واستطاع اغتيال نجاح رئيس دولة النجاشيين السنيين أصحاب زبيد. وبعدها بدأ نزاع طويل بين الصليحيين والنجاشيين.

وتحت عنوان «المواجهة العباسية الفاطمية وأثرها على تأييد الفاطميين للصليحيين في اليمن» تحدث عن الوضع السياسي (سقوط البويهيين المتعاطفين مع الدعوة الفاطمية ومجيء السلاجقة السنيين، روابط الود بين البيزنطيين والفاطميين، اضطراب بلاد الشام وثورة أمرائها على الفاطميين، تحريض بني زيري في بلاد المغرب)، ثم المواجهة الاعلامية (القدح في نسب الفاطميين) والتجارية (تدعيم الحركة التجارية الفاطمية مع الشرق الأقصى عن طريق البحر الأحمر لمنافسة تجارة العباسيين عن طريق الخليج). والمواجهة الحربية (استيلاء البساسيري على بغداد وإقامة الدعوة فيها للفاطميين، ومجيء السلاجقة الذين أنهوا حركة البساسيري)، وابتداء الضعف في الدولة الفاطمية عن طريق تحكم الوزراء بالأمور، وانفصال المغرب بقيادة المعز بن باديس عن الدعوة الفاطمية، وقطع القمح البيزنطي عن مصر. عندها اتجهت انظار الفاطميين نحو اليمن لتقوية الدعوة هناك وحفظ طريق الهند، فحرّضوا علي بن محمد الصليحيّ على إعلان الدعوة، فبادر باحتلال المناطق اليمنية واحدة تلو الأخرى حتى أخضع اليمن كله، ولكن النجاشيين الذين هربوا إلى جزيرة دهلك عادوا سرّاً إلى اليمن واستطاعوا قتل الصليحي سنة 459هـ على التحقيق واسترداد ملكهم على زيد.

كان الصليحي يلقي كل تكريم من قبل الخليفة الفاطمي المستنصر، إذ كان يلقبه بأعلى الألقاب، ويبلغه برسوم دولته وأحوال الخلافة الداخلية والخارجية، وكذلك فعل مع خليفته المكرم أحمد بن علي الصليحي. وكان الصليحي في أول أمره متسامحاً مع أتباع بقية المذاهب، ولكنه غيّر هذه السياسة بعدما بلغه أن أهل صنعاء يجتمعون في المساجد ويتذكرون قبح سيرته ومذهبه، فسّم أبواب المساجد ومنع من دخولها، إلى جانب أنه كان في صراع دائم مع أتباع الدعوة الزيدية. وكان قد أرسل القاضي لمك بن مالك إلى بلاط الخليفة الفاطمي ليطلب له الإذن في الحج وزيارة الخليفة في مصر، فذهب القاضي في سفارته إلى مصر وبقي فيها مدة خمس سنوات (454 - 459هـ) يأخذ علم الدعوة على يد داعي الدعاة هبة الله الشيرازي، وعندما أذن له بمقابلة الخليفة كان الصليحي قد قتل. ويرى المؤلف أن مهمة القاضي لمك كانت لأغراض، منها: أولاً - التمهيد لسفر

الصليحي إلى مصر التي كانت تعاني من اضطرابات شديدة (الشدة المستنصرية) فخشي الخليفة والشيرازي من قوة نفوذ الصليحي فلم يجيباه إلى مطلبه. ثانياً - الحصول على تفويض باستمرار حكم أسرة الصليحيين من بعده في اليمن. ثالثاً - توضيح العلاقة بين الدعوة وحكام اليمن السياسيين.

ولما عاد القاضي لمك إلى اليمن أصبح هو القائم في العلم بينما المكرم أحمد كان قائماً بالملك والسيف، وبذلك أصبح الشيرازي الأب الروحي للدعوة الفاطمية في اليمن، وكان هذا الداعي الفاطمي الكبير ذا علم واسع وصلات علمية وأدبية مع كثير من الأدباء والعلماء مثل أبي العلاء المعري وغيره، وترك تراثاً أدبياً إسماعيلياً احتفظت به الدعوة في اليمن بعد ما نقله إليها القاضي لمك، كما أنه كان يتمتع بنفوذ كبير على الخلافة في مصر حتى وفاته سنة 470هـ.

وفي الفصل الثاني: تحدث عن تطورات الدعوة الفاطمية في اليمن بعد الصليحي، فتحدث أولاً عن الحالة السياسية: استعادة زبيد من قبل المكرم أحمد وتخليص والدته من أسر النجاشي الذي فر مرة أخرى إلى جزيرة دهلك، واستطاع المكرم أن يواجه ثورات النجاشيين والأشراف حتى سنة 467هـ إذ اضطر بسبب مرضه للابتعاد وتفويض زوجته السيدة الحرة الأمر والأشراف على الدولة بعد وفاة والدته. وولّى أمر صنعاء إلى عمران بن الفضل الياامي الهمداني وأبو السعود الصليحي، وجعل على التعكر أبا البركات الحميري؛ ثم تدهورت العلاقة بين عمران من جهة والمكرم والقاضي لمك من جهة ثانية مما أدى إلى خروج صنعاء عن أيدي الصليحيين وسيطرة الهمدانيين عليها، ولكن هذا لم يمنع عمران من نصرة الصليحيين ضد النجاشيين سنة 479هـ في موقعة الكظائم التي قُتل فيها.

وبعد وفاة المكرم أحمد أسند الأمر إلى ولده الصغير المستنصر بوصاية والدته السيدة الحرة ومعاونة القاضي لمك وولده يحيى، وقام الأمير سبأ بن أحمد بالأمر نيابة عن عبد المستنصر. ولكن الأمير الطفل ما لبث أن توفي بعد سنة 480هـ، وكان أخوه المظفر قد توفي قبله، فنزلت الأمور السيدة الحرة. وكان النجاشيون قبل ذلك قد استعادوا مدينة زبيد، فدارت الحرب بينهم وبين سبأ بن أحمد بين كر وفكر،

فُقُتِلَ عمران بن الفضل في موقعة الكظائم، وسعيد بن نجاح الأحول في موقعة الشعرين سنة 481هـ.

وأما في مصر فقد تقلد أمر الدعوة بعد وفاة الشيرازي الأمير بدر الجمالي الذي نجح نجاحاً باهراً في الأمور العسكرية فقلده الخليفة الفاطمي المستنصر ما دون سرير الخلافة شرقاً وغرباً وبُعداً وقرباً.

وفي اليمن كانت السيدة الحرة ذات شخصية قوية فاستطاعت تثبيت قواعد الدعوة في جزيرة اليمن بمعاونة القاضي لمك وابنه يحيى، كما استطاعت القيام بالشؤون السياسية بمعاونة سبأ بن أحمد وعامر الزواجي، واستمرت في عهدها ولاية صنعاء إلى عمران بن الفضل وأسعد بن شهاب، وأوكلت ولاية التعكر إلى المفضل ابن أبي البركات الحميري بعد وفاة والده. وكان الداعي سبأ بن أحمد يتطلع نحو السلطة فأراد الزواج من السيدة الحرة ولكنها رفضت ونشب الخلاف بينهما، فاستعان بالخليفة المستنصر الذي أكرهها على الزواج من سبأ فرضخت مرغمة.

وبعد موت المستنصر الفاطمي سنة 487هـ حدث أول انقسام في الدعوة الفاطمية: اسماعيلية نزارية تعتقد بإمامة نزار بن المستنصر (وهو الابن الأكبر)، واسماعيلية مستعلية يرون صحة إمامة المستعلي ابن المستنصر (وهو الأصغر) الذي خلف والده، ولكن السلطة الفعلية كانت بيد الأفضل بن بدر الجمالي زوج أخته ست الملك. ولكن ثورة نزار سرعان ما أخمدت واعترف جميع الإسماعيلية بإمامة المستعلي ما عدا اسماعيلية فارس (الحشيشية) بقيادة الحسن بن الصباح. وفي سنة 495هـ توفي المستعلي وتولى بعده ابنه الأمر بأحكام الله (وهو طفل صغير) وظلت السلطة الفعلية بيد الأفضل.

وفي اليمن، توفي سبأ بن أحمد وعامر الزواجي، وخرجت صنعاء من أيدي الصليحيين إذا استولى عليها الهمدانيون بمساندة عائلة عمران اليامي وتولى أمرهم السلطان حاتم المغلسي. وبرز المفضل الحميري وأخذ دور سبأ بن أحمد في حماية دولة الصليحيين برئاسة السيدة الحرة، وحينما توفي المفضل سنة 504هـ

اعتلى مكانه الأمير أسعد بن أبي الفتوح، وامتنعت عدن بقيادة أبي الغارات الهمداني وابن عمه أبي السعود الزريعي عن سلطة السيدة الحرة. وآلت رئاسة الدعوة إلى الداعي يحيى بن لمك بعد وفاة والده سنة 491هـ. وبعد وفاة الأمير أسعد وصل إلى اليمن ابن نجيب الدولة الذي أرسلته رئاسة الدعوة من مصر لحماية أطراف ما بقي من مملكة السيدة الحرة، وقد ازداد نفوذ ابن نجيب الدولة حتى حاول تنحية السيدة الحرة بعدما فشل في استعادة أي جزء من الأطراف التي انشقت على الصليبيين، وآل مصيره إلى القتل سنة 521هـ بصورة غامضة بأمر من الخليفة الأمر.

وتحت عنوان «اليمن ودعوة الهند» ذكر اهتمام الدولة الصليحية بالدعوة في الهند والسند وعمان والإحساء وخاصة أيام المكرم أحمد والقاضي لمك، وذكر أن متولي أمر اليمن كان يقترح من يسند إليه أمر الدعوة في هذه البقع ويوافق عليها الخليفة الفاطمي في مصر، مما يدل على امتداد نفوذ أمراء اليمن إلى هذه الأطراف. ولخص بيبجاز تاريخ الدعاة في الهند وطائفة البهرة في كُجرات بعد القرن السادس.

وفي الفصل الثالث: أرّخ للدعوة الطيبيّة، فذكر أنه بعد وفاة الأمر بأحكام الله سنة 524هـ مقتولاً على يد بعض النزارية حدث انقسام ثان في الدعوة الإسماعيلية: إسماعيلية خافضة أتباع أبي الميمون عبد المجيد الملقب بالحافظ لدين الله وهو ابن عم الأمر، وإسماعيلية طيبيّة أتباع أبي القاسم الطيب ابن الأمر. ثم تحدث عن الأحداث التي سادت في تلك الفترة والتي أدت إلى هذا الانقسام، إذ حاول أبو علي أحمد بن الأفضل الانقلاب على الدولة الفاطمية، فسجن الحافظ وأظهر مذهب الإمامية الإثني عشرية، وتلقب بأرفع الألقاب كنائب عن الإمام المنتظر وضرب العملة باسمه، ولكنه قتل سنة 526 هـ، وعاد الحافظ إلى سدة الحكم كولي عهد كفيل لمن يُذكر اسمه ولكنه نصّب نفسه إماماً في نفس السنة وتلقب بالحافظ لدين الله.

ثم ناقش المؤلف مسألة الوجود التاريخي للإمام أبي القاسم الطيب ابن الأمر، وخلص إلى أنه ولد عام وفاة والده وأن الحافظ كتّم أمره أو قضى عليه عند وفاة الأمر، وأثبت ذلك بواسطة السجل الذي أرسله الأمر إلى السيدة الحرة في اليمن

وبعض الاشارات الأخرى في بعض المصادر.

ولذلك قامت السيدة الحرة في اليمن - لما وصل خبر وفاة الأمر - بمعاونة الداعي الذؤيب الوادعي والسلطان الخطاب الحجوري بأخذ البيعة والعهد للإمام الطيب بن الأمر، وفي الوقت نفسه فصلت وظائف الدعوة نهائياً عن وظائف الدولة، وعينت الذؤيب كأول داع مطلق ليقوم بالدعوة نيابة عن الإمام المستتر الطيب. ورفضت أن تقيم الدعوة للخليفة الحافظ، وبذلك استقلت دعوة اليمن عن الاشراف الفاطمي، ولكن الحافظ كتب إلى السلطان سبأ بن أبي السعد الزريعي صاحب عدن أن يقيم له الدعوة، فأجابه إلى ذلك ومعه الهمدانيون في صنعاء وإن كانوا يظهرون ذلك تقية، بينما هم يأترون بأمر السيدة الحرة.

ثم ذكر المؤلف أن انفصال الدولة عن الدعوة حدث بعد وفاة السيدة الحرة دون أن يتنبه إلى أنه ذكر ذلك في أيامها وأنها هي التي فعلت ذلك.

وقبل أن يحدد مدلول رتبة الداعي المطلق ومكانته، عرض في إيجاز تسلسل مراتب الدعوة الإسماعيلية: الناطق (وهو النبي ﷺ) والوصي (الإمام علي بن أبي طالب) والإمام، والباب، والحجة، والداعي (داعي بلاغ) والداعي المطلق والداعي المحصور، والمأذون (المطلق والمحصور والمحدود) ثم المكاسر، ويلى ذلك رتبنا المؤمن البالغ والمؤمن المستجيب ولا يدخلان في ديوان الدعوة.

ثم ذكر الرتب التي تولاهها دعاة اليمن إلى أيام الدولة الصليحية وبعد سقوطها بوفاة السيدة الحرة، إذ أصبحت الدعوة منظمة دينية محضة وفقدت قوتها السياسية ولجأت إلى التستر.

وعن أدب الدعوة الطيبية أشار إلى تأثيره برسائل إخوان الصفا وخاصة الرسالة الجامعة، وعدد مؤلفات بعض الدعاة الذين اقتبسوا في مؤلفاتهم بعض هذه الرسائل أو فقرات منها.

وعن عقيدة الفاطميين في التأويل أشار بإيجاز إلى نظرية «المثل والممثل» ومدلولها في العقيدة الفاطمية. ثم عدد أهم مؤلفات الدعوة الطيبية، فذكر مؤلفات الداعي الذؤيب الوادعي، والسلطان الخطاب الحجوري، والداعي إبراهيم

بن الحسين الحامدي، وابنه حاتم بن إبراهيم الحامدي، والمأذون محمد بن طاهر الحارثي، وعلي بن الحسين بن الوليد، وابن عمه علي بن محمد بن الوليد.

ثم أثبت نصاً هاماً منقولاً عن كتاب الداعي طيب زين الدين الداودي (ت 1252هـ/1837م) ذكر فيه ترتيب أهمية الكتب الإسماعيلية وما يجب أن يطلع عليه المؤمن المستجيب، والكتب التي لا ينبغي أن يطالعها إلا مستحقوها، والكتب غير المباحة إلا بإذن من الداعي المطلق.

ثم ذكر بإيجاز شديد علاقة اليهود بأدب الدعوة الإسماعيلية في اليمن، فتحدث عن الروابط التجارية التي كانت تربط يهود مصر بيهود اليمن، وشكك بصحة نسبة كتاب «بستان العقول» إلى يعقوب بن ناثانيل إذ إنه مطبوع بطابع الفرقة الإسماعيلية ويحتوي على كثير من مصطلحاتها، ورجح أن فكرة التقريب بين الأديان السائدة في هذا الكتاب شجعت يهود اليمن على تبرير اعتناقهم الدين الإسلامي.

الباب الثالث: دولة اليمن الزيدية في القرنين الخامس والسادس للهجرة
في الفصل الأول بدأ المؤلف بأصول الزيدية، فذكر انقسام المسلمين إلى شيعة علي وشيعة عثمان وحرب الجمل، وصفين، وخروج الخوارج على الإمام علي، وتنازل الحسن لمعاوية، ثم مقتل الحسين، وحركة المختار الثقفي المعروفة بالكيسانية، إلى أن وصل إلى ثورة زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب، فذكر سبب خروجه على الدولة الأموية، وصيغة مبايعته، ثم مقتله وصلبه سنة 122هـ. وهروب ولده يحيى إلى خراسان ومقتله سنة 125هـ. ثم ذكر تقسيم الجاحظ شيعة علي إلى زيدية ورافضة، وعرف الرافضة بأنهم الذين طلبوا من زيد بن علي أن يتبرأ من الشيخين وإلا رفضوه، فأبى وقال لهم: «إنكم الرافضة»، فرفضوا إمامته وباعوا جعفر الصادق، وهم الشيعة الإثنا عشرية، وذكر بعض عقائدهم بالرجعة والإمامة والتقية وتكفير الصحابة. أما الزيدية (أتباع زيد بن علي) فيرون الإمامة في أولاد فاطمة كائناً من كان. وكان قوم من الفقهاء المحدثين كالسُفْيَانِيِّين على هذا المذهب، وكذلك أكثر علماء الحديث، ولذلك عُدَّ المذهب الزيدي المذهب الخامس.

وقبل أن يذكر فرق الزيدية ذكر إجماعهم على تفضيل علي، وأن الإمامة بعد الحسين في ذرية السبطين، واستحقاقها بالفضل والطلب لا بالوراثة، والخروج على الجائرين واجب، وكذلك يرون القول بالتوحيد والعدل مثل المعتزلة. وأما خلافهم فهو في الفروع. ثم عدد فرق الزيدية: الجارودية، والبترية (الصالحية)، والجريزية (السليمانية)، ثم حسينية، ومخرعة، ومطرفية، وقاسمية، وناصرية. وأما زيدية اليمن فغلب عليهم مذهب الهادي إلى الحق، وهو ما استقر عليه مذهب الزيدية المتأخرين، وقال: «ولم يبق لمذهب زيد الأول في الأصول والفروع متابع أصلاً». ثم عرّف ببعض هذه الفرق واعتقاداتهم في الإمامة والصحابة، كالجارودية والبترية والجريزية، وهذه أشهر فرق الزيدية الأوائل.

ثم ذكر شروط الإمامة عند الزيدية، والخصال التي يجب توفرها في الإمام: أن يكون من أهل البيت ولا يليها بالوراثة، وأن يكون قادراً على الخروج بنفسه للقتال، وأن يكون عالماً وزاهداً... وجوزوا وجود أكثر من إمام في زمان واحد. وقال: إن المذهب الزيدي يتصل في الأصول (العقائد) بمذهب المعتزلة، إذ كان زيد تلميذاً لواصل بن عطاء، ويخالفونهم في المنزلة بين المنزلتين، وأما في الفروع (الفقه) فقد كان الزيدية على مذهب أبي حنيفة إلا في مسائل قليلة وافقوا فيها الشافعي.

بعد ذلك أرّخ للدولة الزيدية في اليمن، فذكر أولاً سيرة القاسم بن إبراهيم الحسني الرسي - صاحب الفرقة الزيدية المعروفة بالقاسمية - والذي ابتدأ نشاطه الفعلي والدعوة لنفسه من مصر، ثم هرب إلى الحجاز حيث استقر في جبل الرس بالمدينة، ومن هناك نشر مذهبه عن طريق الحُجّاج، وكان من أكبر علماء الزيدية المتكلمين، وترك عدة مصنفات، وتوفي سنة 246هـ.

وفي النصف الأخير من القرن الثالث للهجرة كانت الفوضى تعم اليمن، ودخلها الإسماعيليون دعاة الفاطمية، فاستنجدت قبائل خولان بحفيد القاسم يحيى بن الحسين بن القاسم الرسي الملقب بالهادي إلى الحق، فذهب إليها أولاً سنة 280هـ وعاد سريعاً، فألح عليه أهل اليمن بالعودة إليهم، فعاد سنة

284هـ وبدأ بتأسيس الدولة الزيدية من صعدة، ومنها وجه نشاطه إلى اليمن كله، فاستجابت له بعض النواحي القرية، واستعصت البعيدة عن نفوذه، وكان يعاونه أبو العتاهية صاحب صنعاء، ودخل في صراع كبير ضد القرامطة الذين انتصروا عليه في بعض المواقع، ولكن الزيدية قضت عليهم أيام الناصر أحمد ابن الهادي. وكان الهادي متابعاً في الأصول لأقوال أبي القاسم البلخي المعتزلي، أما في الفروع فقد استقل فيها باجتهاده، وخالف زيد بن علي في مذهبه. وبلغ من العلم مبلغاً كبيراً، وصنف عدة كتب تنطق بمذهبه، وتوفي سنة 298هـ. وقيل إنه تلقب بأمير المؤمنين.

ثم ذكر خلفاء الهادي: ابنه محمد المرتضى الذي اعتزل سنة 301هـ، فخلفه أخوه الناصر أحمد الذي قضى على القرامطة وتوفي سنة 322هـ بعد أن هزمه اليعافرة، ثم القاسم المختار ابن الناصر أحمد الذي اغتيل سنة 345هـ. ثم أرنخ للقاسم بن علي العياني الذي وصل إلى اليمن قادماً من الشام، وأقام في أرض خثعم، وبدأ دعوته سنة 388هـ، واستطاع أن يمكّن لنفسه في صعدة بمساعدة خثعم، ثم دخل صنعاء وغيرها من المخاليف؛ وكان يخالف الهادي في الفروع، وتوفي سنة 393هـ. ثم خلفه ابنه المهدي لدين الله أبو عبد الله الحسين بن القاسم، الذي برز في العلم، ووضع تصانيف كثيرة في علم الكلام وغيره، وقتل سنة 404هـ، وإلى هذا الإمام تنسب الفرقة الحسينية من الهادوية التي تعتقد بكثير من البدع والأقوال الباطلة، وبوفاة الإمام المهدي انتهت دولة الأئمة الزيدية الأولى في اليمن.

وتحت عنوان: «افتراق زيدية اليمن إلى مخترعة ومطرفية»، ذكر أن هذا الافتراق حصل زمن الإمام القاسم العياني إثر مناظرة بين رجلين عالمين هما: علي بن شهر، وعلي بن محفوظ، اللذين اختلفا حول وجود الأعراض، فافترقت الزيدية الهادوية إلى: مخترعة لقولهم بإمامة علي بالنص الخفي، وأن الله اخترع الأعراض في الأجسام، وهي مقالة علي بن شهر؛ ومطرفية نسبة إلى أحد مقدميهم «مطرف بن شهاب» الذي كان يروي أصول الدين عن علي بن حرب عن علي بن محفوظ، وهو معلم الزيدية العدلية في اليمن،

وكانوا يقولون: إن الأعراض تُعلم بالدليل من المحسوسات من الأجسام. وقد كفر هذه الفرقة كثير من الزيدية.

ثم ذكر أهم عقائد المطرّفية، فقال: إنهم يعتقدون أن الله فاعل مختار، خلق الأصول الأربعة وهي (الماء والنار والهواء والثرى) وهي التي تدبر العالم، وأنه لا يجب أن يوصف الله بصفات مثل: القادر والعالم والحي... ومن أهم مبادئهم: الهجرة؛ وهم لا يعتقدون «عقيدة الطباعية». ثم أورد المؤلف مقارنة هامة بين أقوال المطرّفية وأقوال الزيدية في بعض المسائل نقلاً عن كتاب «المصباح اللائح» لعبد الله بن زيد؛ ويعلها أقوال العلماء والأئمة في عقائد المطرّفية بين التكفير والتوقف عن ذلك.. ومقارنة بين آرائهم وآراء بعض الفرق الأخرى كالمعتزلة والهادوية.

وعن دخول كتب المعتزلة إلى اليمن، ذكر صلة الزيدية بالمعتزلة في الأصول منذ الإمام زيد بن علي، ووفود بعض الدعاة الزيدية من الجيل والديلم والعراق إلى اليمن تصحبهم بعض الكتب النفيسة، حتى وصول الفقيه زيد بن علي بن الحسين الخراساني الزيدي البيهقي، الذي أقام ستين ونصفاً في اليمن، فالتقاء كثير من العلماء، منهم القاضي جعفر بن عبد السلام الذي كان يعتقد أولاً أقوال المطرّفية، وعندما قرأ على الفقيه زيداً رجع إلى أقوال المخترعة، ثم صحب الفقيه زيد أثناء اعتزامه العودة إلى العراق، ولكن الفقيه توفي في المخلاف السليماني، فأكمل جعفر بن عبد السلام طريقه إلى العراق حيث التقى علماء المعتزلة وأخذ عنهم، وعاد إلى اليمن وبصحبه كثير من كتب المعتزلة للاحتجاج على المطرّفية ومناظرتهم. وهكذا كان سفر القاضي جعفر إلى العراق سبباً في نقل تراث المعتزلة إلى اليمن، والذي حفظ إلى هذا الوقت، بينما ضاعت أغلب كتبهم في بقية الأقطار على يد خصومهم من أهل السنة.

وفي الفصل الثاني: تكلم عن الدولة الزيدية الثانية في اليمن:

أسس الدولة الزيدية الأولى الهادي إلى الحق سنة 284هـ، وانتهت بوفاء

الحسين بن القاسم العياني سنة 404هـ، وبعده تولى أمر الزيدية دعاة ومحتسبون ومقتصدون لا تتوافر فيهم صفات الأئمة، كأبي هاشم الحسن بن عبد الرحمن بن يحيى (ت 431هـ)، وحمزة بن الحسن (ت 459هـ)، وأبي الفتح الديلمي الذي دعا لنفسه، وقتله الصليحي سنة 444هـ، وغيرهم. ودخلت الدعوة الزيدية في صراع مع دولة الصليحيين، وظلت الحرب بينهما بين كر وفر حتى قيام الامام المتوكل على الله أحمد بن سليمان سنة 532هـ، فدعا الناس إلى الرشاد ومبايعته، حتى انتظم له الأمر في صعدة ونجران وبلاد الجوف وصنعاء، وبذلك فهو يُعدّ مؤسس الدولة الزيدية الثانية في اليمن. وجرت بينه وبين صاحب صنعاء السلطان حاتم بن أحمد وقائع، وحارب بدعة المطرفية بمساعدة القاضي جعفر بن عبد السلام، ووضع عدة مصنفات في الرد عليهم، وتوفي سنة 566هـ.

ثم ترجم للإمام المنصور بالله عبد الله بن حمزة (ولد سنة 561هـ) الذي بايعته الزيدية سنة 594هـ بعد أن تثبتوا من صلاحيته للإمامة، وأرسل دعائه إلى نواحي بلاد الجيل والديلم فبايعه جميع من كان بها من الزيدية، وخطب له في مساجدها وعمر سنة 600هـ حصن ظفار وأقام به، وحارب المطرفية حرباً شعواء حتى كاد أن يقضي عليهم، ورجع بفضلله خلق كثير منهم كانوا يقولون بمقالة المطرفية. فلما عظمت البلية على المطرفية أرسل رجل منهم يعرف بابن النساخ رسالة إلى خليفة بغداد الناصر أحمد يحرضه على محاربة الإمام المنصور، فاستجاب وأمر الملك الكامل الأيوبي ملك مصر بذلك، فأرسل هذا ابنه الملك المسعود مع جيش كثيف واجتاح اليمن، فهرب المنصور بالله من حصنه إلى الجبال، وقامت الحرب بينهما حتى تصالحا سنة 613هـ. وتوفي المنصور بحصن كوكبان سنة 614هـ ودفن بحصن ظفار، وترك عدة مؤلفات في الرد على المطرفية وغيرها.

إلى هنا انتهى الكتاب، وألحق به المؤلف ثمانية ملاحق: شجرة الأئمة الإسماعيلية، ثم دعائهم في اليمن والمدافعون عن دولتهم، وشجرة الأسرة الصليحية، وأسرة القاسم الرسي، ومقالة عن صفات الإمام عند الزيدية عن كتاب «السير» للناطق بالحق (ت 424هـ)، ومقالة المطرفية عن كتاب «الهاشمة لأنف الضلال» للمتوكل على الله أحمد بن سليمان (ت 556هـ)، والمطرفية

في زمن المنصور بالله عن كتاب «الحدائق الوردية»، وفي الملحق الثامن عدّد بعض المؤلفات في الرد على المطرّفة.